أثر المتغيرات التاريخية والجغرافية على نشأة وتوزيع مراكز الاستيطان في أقليم بابل

م. د. جاسم شعلان كريم الغزالي
جامعة بابل/ كلية التربية الاساسية

المقدمـــــــة

مما لاشك فيه إن الحضارة وبناء المدن هي نبت العراق ومنه انتشرت إلى أنحاء العالم، ونجد من الناحية الرمانية إن الظاهرة الحضرية تضرب جذورها بعيدة في تاريخ الاستيطان البشري في هذا البلد، وترجع إلى ما قبل النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد، ومن ناحية المكان نلاحظ إن العراق يمتلك أوسع انتشار لهذه الظاهرة التي اغناها العرب في المراحل اللاحقة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

وتزودنا المصادر التاريخية بان إقليم بابل ملائما ومشجعا على نشأة المراكز الحضرية لقدرته على توفير مقومات نمو تلك المراكز وازدهارها، ومن ملاحظة السفر التاريخي للمدينة نجد إن الإطار المساحي لموقعة استثمر بمراكز حضرية عديدة ومهمة ابتداءا من الفترة الاكدية وحتى الوقت الحاضر، وتعددت مواضع تلك المراكز في هذا الموقع وأخذت الواحدة منها ترث الأخرى أو تكون بديلة لها، ولم ينقطع هذا التواصل الحضري على الرغم مما تعرض له الإقليم من ظروف طارئة سياسية وطبيعية إذ أن هذه الظروف التي كان الإقليم وعاءا لها لم تمنع من يستمر في احتكار الحضارة لفترة طويلة لاستمرارية احتفاظه بمزايا المكان الطبيعية والبشرية، وقد ورثت مدينة الحلة ذلك الثقل الحضاري والبشري الذي يمتلكه والذي انعكس على نموها وازدهارها وتنظيم خطتها وشكل مبانيها وتطور بناءها الوظيفي.

يهدف البحث إلى بيان دور العوامل التاريخية والجغرافية في نشأة مراكز الاستيطان في إقليم بابل في العهدين القديم والإسلامي ومراحل النمو والضعف التي أصابت تلك المستوطنات، فالمعروف تاريخيا إن الإقليم تعاقبت على حكمة وإدارته العديد من الإمبراطوريات والدول وانعكست المعطيات الموضوعية لها على واقع الاستيطان الذي هو جزء من الفعاليات الحضارية لتلك الشعوب، إذ كان الإقليم ساحة للنزاعات والمصالح المتضاربة للقوى الإقليمية وقتذاك، كما أن ظروف البيئة وما تفرزه من تغيرات على الواقع مثل تغير مجرى الأنهار والفيضانات أحدث تغييرا لا يتوقف في توزيع تلك المراكز.

أولا: المتغيرات التاريخية ونشوء مراكز الاستيطان

لقد بدأ تعمير واستيطان السهل الرسوبي قبل سبعة ألاف سنة، ولم يكن حينها يتكون من بيئة جغرافية واحدة وإنما من بيئات، واحدة منا تقع بين غرب دجلة وشرق الفرات، وتتكون هذه البيئة من بيئتين ثانويتين، الأولى تقع في جزءها الشمالي والثانية في جزءها الجنوبي، وتفصل بينهما بحيرات واسعة عرفت في العصر التاريخي باسم الاهوار البابلية [١]. وشهد هذا الجزء قيام العديد من المدن ودويلاتها عبر الأدوار التاريخية حتى يمكن القول بأنه المنجم الذي أنتج كبريات المدن عبر تلك الأدوار، إذ أصبح مركزا وعاصمة لآدارة وحكم الإمبراطوريات الكبرى التي توالت على حكم هذه المنطقة من السهل الرسوبي والتي عرفت باسم ارض أكاد أو ارض بابل للفترة من ٢١٠٠- ٥٣٩ ق.م [٢]

إن أقدم المستوطنات التاريخية المعروفة ظهرت في الألف الثالث قبل الميلاد في وادي الفرات وفي هذه المنطقة بالذات، وقد اتسمت نشأتها بنوع من أنواع العمران، وهي ثورة حضارية كبرى لأنها اقترنت بظهور المدنية [١]. وكان ظهور هذه المدن على وادي الفرات وليس على وادي دجلة بسبب انخفاض مستوى الأرض حول مجرى النهر مما يتيح ممارسة الزراعة المستديمة (الري السيحي)، فضلا عن وفرة المياه في فصل الصيف، وبطئ جريان النهر في هذا الوادي جعله أكثر استقرارا وثباتا واقل خطورة من دجلة في أثناء الفيضان[٢]. وبذلك كان أكثر صلاحية للسكن والاستيطان. خارطة (١)

---

(١) إبراهيم شريف، الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الاسلامي، بغداد، بدون تاريخ، ص٥٣

(٢) نفس المصدر، ص ٤٩

إن الزمن الذي ظهر فيه الاستيطان والمدينة في هذه المنطقة كان في العصر الذي سادت فيه ظروف المناخ الانتقالي الحالي، بين الفترة المطيرة وحلول الجفاف، حيث تعذر على السكان ممارسة الصيد، ولم تعد أسباب الحياة متيسرة[٣] وهذا السبب هو الذي يفسر هجرة الأقوام والقبائل من شبة الجزيرة العربية والاستقرار على آو حول وديان الأنهار الدائمة الجريان في بلاد وادي الرافدين والهلال الخصيب.

لقد ضم إقليم بابل معظم المراكز الحضرية التي ظهرت في السهل الرسوبي العراقي إن لم يكن جميعها، وارتبطت تسمية العراق بإقليم بابل، فالعراق آو بلاد ما بين النهرين Mesopotamia لم يعرف إلا من خلال بابل وفي القران الكريم إشارة إلى بابل الإقليم أو المدينة في قوله تعالى ((وما انزل على الملكين ببابل))[٤]. وكان ملوك النبط وإبراهيم قد نزلوا بأرض بابل والكلدانيون هم الذين نزلوها في الزمن الأول ويقال إن من سكنها نوحا وكان أول من عمرها[٥]. وقبل أن يتخذ سرجون الاكدي من (أكد) عاصمة لإمبراطوريته الكبيرة، فان مدينة كيش (تل الاحيمر)٢٣٧١ ق.م كانت العاصمة، وهي موضع ومنطقة شرق بابل على مسافة (١٠) كم وهي من المدن المهمة في بلاد بابل ومركز مهم من مراكز الإمبراطورية الاكدية، إذ حلت فيها الملوكية من السماء بعد انتهاء الطوفان[٦].

وفي إقليم بابل أقام سرجون عاصمته الجديدة أكد على الضفة اليسرى لنهر الفرات وأصبحت فيما بعد مرفأ تقصده السفن من البحر السفلي (الخليج العربي) عبر الفرات باتجاه الجزيرة السورية[٧] وعلى مسافة (٥٠) كم شمال شرق بابل توجد مدينة كوثى ربا (تل إبراهيم) التي اتخذت قديما مركزا لعبادة الإله (نرجال)[٨]. وتقع هذه المدينة على نهر كوثى الذي هو أول نهر اخرج بالعراق[٩] وهي من ابرز مدن بابل الشمالية قبل نهوض بابل، وعلى الشاطئ الشرقي للفرات في مجراه القديم باتجاه كوثى بنيت مدينة سبار (تل أبو حبه) في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، وهي إحدى المدن الأربع التي كانت موجودة في العراق قبل الطوفان أي قبل الألف الثالث قبل الميلاد والمدن الثلاث الأخرى هي (كيش وشورباك واريدو) وهي من المدن المهمة في التاريخ البابلي وذات مقام مقام تجاري رفيع[١٠].

---

(١) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج ١، بغداد، ١٩٧٣،، ص٤٢٧

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، بدون تاريخ، ص٤٨٧

(٣) احمد سوسه وادي الفرات ومشروع سدة الهندية، ج٢ مطبعة المعارف، بغداد،، ١٩٤٥، ص ٧٨

(٤) جوردن أيست، الجغرافية توجه التاريخ، تعريب جمال الدين الدنياصوري، مطابع دار الهلال، القاهرة، بدون تاريخ، ص٧٩.

(٥) احمد سوسه، وادي الفرت، مصدر سابق، ص١٨٠

(٦) جوردن ايست، الجغرافية توجه التاريخ، مصدر سابق، ص٤٥

(٧) سورة البقرة، الايه ١٠٢

(٨) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، مصدر سابق، ص٣٠٩

(٩) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص٢٦٧.

(١٠) فاضل عبد الواحد علي، السومريون والاكديون، كتاب العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣، ص٧٥

خارطة رقم (١)

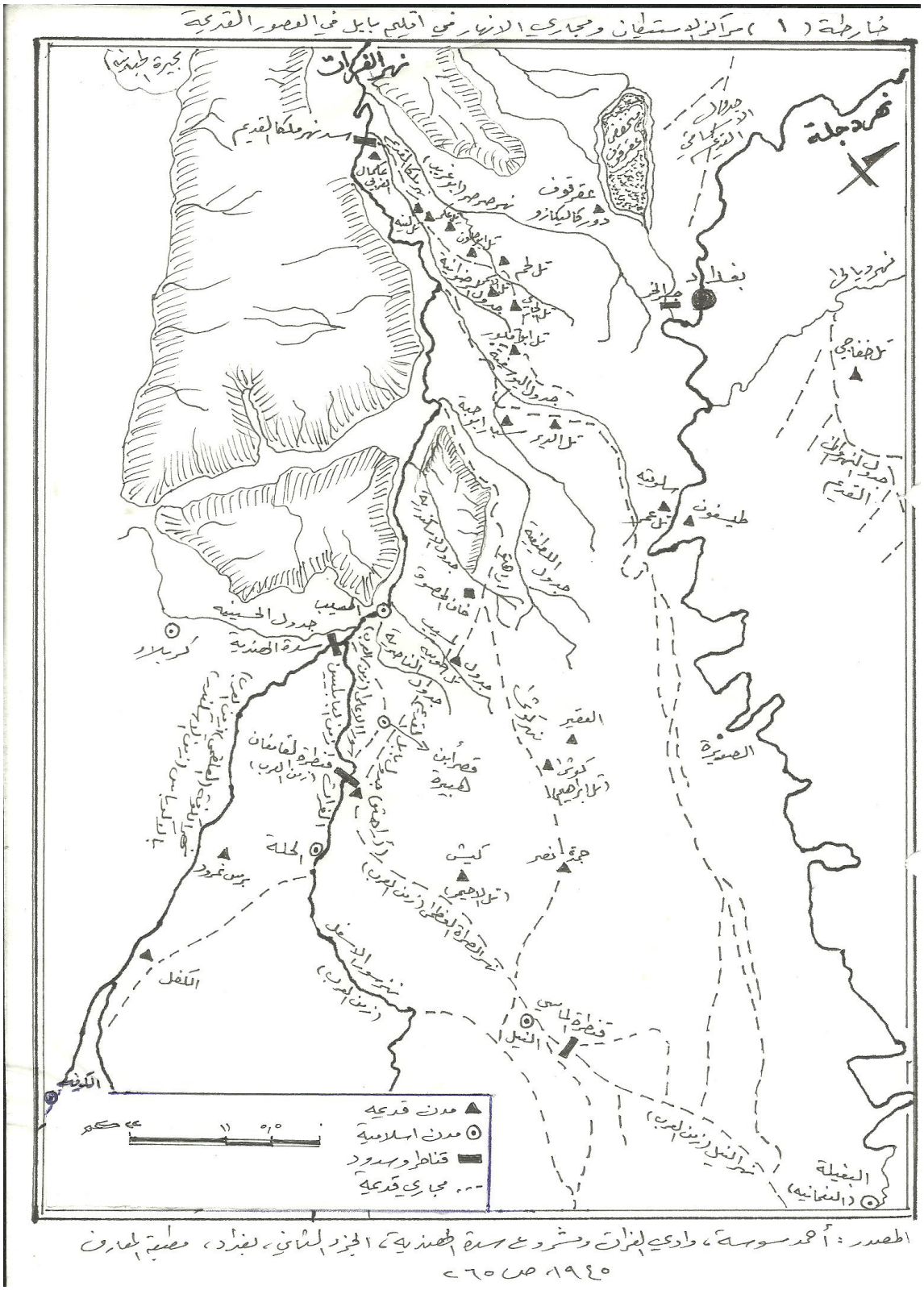

المصدر: أحمد سوسة، وادي الفرات ومشروع سدة الهندية، الجزء الثاني، بغداد، مطبعة المعارف ١٩٤٥، ص ٦٥.

وفي العام ١٨٩٤ ق.م أصبحت بابل عاصمة لسلالة بابل الأولى، وأصبح لها شأن كبير في مجال الإدارة والعمران على يد ملكها السادس حمو رابي ١٧٩٣ ق.م الذي شيد لها سورا ومد عمرانها إلى الجانب الآخر من نهر اراهتو (شط

بابل). وبالإضافة إلى بابل، فان المدن البابلية الأخرى قد حظيت باهتمام حمو رابي إذ قام ببناء الدور وتجديد العمارة وإنشاء المدارس في كل من سبار ومدينة وبورسيبا التي تعرف ببرس النمرود أو كوثى الطريق.

إن اختيار موضع بابل عاصمة لسلالة بابل الأولى يعود إلى موقعها وسط بلاد الرافدين وتوسطها مناطق يتركز فيها السكان والعمران، إلى جانب الميزة الدفاعية التي يوفرها نهر الفرات، وكان للنهضة التجارية التي شهدتها، والعناية بنشر الأمن والعدل الدور الكبير في أن تكون بابل في عهد اشهر ملوكها نبوخذ نصر أشهر مدن التاريخ، وان موقعها على نهر الفرات جعل منها مدينة تجارية من الطراز الأول، إذ أنها حصلت والمدن الأخرى على أموال طائلة لمرور السفن والقوافل فيها، إذ استخدم النهر في نقل الأخشاب من الشام والقير من هيت بهدف بناء وتعمير المدينة وبناء معابدها ورصف شوارعها[١]

لقد أصبح رخاء مدينة بابل وإقليمها مضربا للأمثال ويرجع إلى البابليين الفضل في ضبط الفرات وصيانة أراضية من أخطار الفيضان والقيام بإعمال التعمير والإنشاء وقال عنها هيرودتس ((في بابل كما هو الحال في مصر ترع وجداول تقطع أراضيها)) [٢].

ونظرا لما تتمتع به مدينة بابل من مقومات اقتصادية وعمرانية ودينية فقد كانت عامل جذب وإغراء وبصورة دائمة لمختلف الأقوام التي غزت بلاد الرافدين، إذ لقب ملوك الفرس الاخمينيون أنفسهم (ملوك بابل والبلاد) بعد احتلالهم لها عام ٥٣٩ ق.م. واتخذها السلوقيون عاصمة لهم قبل تأسيس سلوقية على نهر دجلة، وان قصة موت الاسكندر الكبير في بابل وحلمه في جعلها عاصمة الدنيا كانت تثير لدية الرغبة في احتلالها الذي تم له عام ٣٣١ ق.م [٣] .

لقد أصبحت بابل ومنذ عهد السلالة الاكدية مركزا للعراق لمدة خمسة عشر قرنا وعاصمة لعشر سلالات حاكمة[٤]، واستوطنها البرثيون لاحقا وهم ملوك النبط وسموها ارض السواد لكثرة ما فيها من الزرع والنخيل بعد إن كانت تعرف سورستان أو سورا، واليها ينسب السريانيون وهم النبط ولغتهم السريانية[٥]. ونزل هؤلاء في ارض السواد مما يلي قصر ابن هبيرة وسقي الفرات (بابل) والجامعين وسورا... واهتموا بالفلاحة [٦] .

---

(١) صالح فليح حسن إلهيتي، طريق القير من هيت إلى بابل، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، العدد ٢٣، ١٩٨٩، ص١٨.

(٢) احمد سوسة، تطور الري في العراق، بغداد، ١٩٤٦، ص٣٢

(٣) مؤيد سعيد، العراق في عهد الاحتلال الاخميني – السلوقي، كتاب العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣، ص٢٥١

(٤) قحطان رشيد، الكشاف الأثري في العراق، بغداد، ١٩٨٧، ص١٩٣

(٥) عبد المؤمن عبد الحق البغدادي، مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٤، ص٧٥٤.

(٦) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، بيروت، ١٩٦٥، ص٢٥٧.

ثانيا: تغير مجاري الأنهار واثره على إعادة توزيع مراكز الاستيطان.

ارتبط توزيع المدن الأنفة الذكر بمتغير جغرافي مهم وهو الأنهار، وان الحضارات التي قامت عليها كانت تسمى بالحضارات أو المدن الاروائية التي يعتمد اقتصادها على الزراعة بالدرجة الأولى ثم التجارة وكلاهما يعتمدان الأنهار، وسنلاحظ كيف تؤثر الأنهار في إعادة توزيع مراكز الاستيطان بعد تغيير مجاريها في المنطقة، وانتقال تلك المراكز أو المستقرات من موضع لآخر إذ أن العمران والحياة تهاجر مع كل مجرى جديد لها، فالمعروف تاريخيا إن مجرى نهر الفرات الرئيسي قد غير مجراه الشرقي القديم صوب سبار وكوثى وجمدة نصر ونفر إلى مجراه الجديد غربا محتلا مجرى نهر اراهتو (نهر بابل) الذي يأخذ من الضفة الغربية لنهر الفرات القديم ويمتد جنوبا حتى ينتهي عند مدينة كيش، مارا بمدينة بابل متبعا مجرى شط الحلة الحالي، وان القسم الجنوبي من هذا النهر الذي يمر بكيش كان معروفا بشط النيل وهو النيل القديم، ويغلب الظن إن نهر الفرات كان قبل الطوفان يسلك هذا المجرى بحدود ٣٠٠٠ ق.م [١] .

كان المجرى السابق للفرات يقترب كثيرا من نهر دجلة عند مدينة سبار جنوب نهر الملك خارطة (٢)، حيث يمثل جدول اليوسفية الحالي ذلك المجرى ويستمر جنوبا حتى يصب في الخليج العربي (البحر السفلي)، وتقع على امتداد هذا المجرى وفروعه الذي يسمى تاريخيا كوثى عدة مدن منها سبار، كوثى، جمدة نصر، نيبور (نفر) ايسن، اوما، شروباك، الوركاء، اريدو ولكش، ولم تكن بابل في ذلك الطور ١٨٦٥ ق.م سوى بلدة أو قرية صغيرة لم تشتهر بعد يقنطها بعض الأعراب وبقايا الاكديين الذين كانت عاصمتهم أكد قريبة منها [٢].

إن سبب تحول مجرى النهر غربا يرجع إلى الترسبات الغرينية التي تراكمت في قعر نهر كوثى فأدت إلى تدفق مياه الفيضان في فرع بابل الذي أصبح المجرى الرئيسي للفرات، وفي الوقت الذي أدى هذا التغير إلى تراجع مركز ودور المدن الواقعة على مجراه الشمالي والأوسط مثل كوثى وسبار وجمدة نصر ونفر، فانه أدى إلى غرق المدن ألواقعه في مجراه الأسفل مثل أور واريدو، ولذلك لم يكن أمام سكانها إلا الهجرة إلى منطقة بابل التي غدت بفضل تحول مجرى الفرات إليها من أخصب المناطق وأصلحها للسكن والزراعة[٣]

وفي الحقيقة فان تحول مجرى الفرات باتجاه فرع بابل الذي استمر من ٢٠٠٠ ق.م حتى أواخر حكم الساسانيين كان السبب المباشر في انتقال السكن والعمران والحضارة من المدن الجنوبية والشمالية الواقعة على المجرى القديم إلى جهة المجرى الجديد، ولذلك فلا غرابة أن تتخذ الإمبراطورية البابلية القديمة من مدينة بابل عاصمة لها، وكانت بابل في الطور الأول من مجرى الفرات (الألف الثالث ق.م) قرية أو بلدة صغيرة تقع على الضفة اليمنى من نهر بابل والذي كان فرعا من مجرى الفرات الرئيسي، ولما غير النهر مجراه السابق وأصبح مجرى بابل
هو المجرى الرئيسي أصبحت بابل المدينة والعاصمة على الضفة اليسرى منه[٤].

---

(١) سامي سعيد الأحمد، حضارة العراق، ج٢، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥، ص٧٢٢

(٢) احمد سوسة، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، بغداد، ١٩٧٩، ص١٤٢

(٣) وليم ويلكوكس، من جنة عدن إلى عبور نهر الفرات، ترجمة احمد سوسة، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٤٣، ص١٧٠.

(٤) احمد سوسة، وادي الفرات، مصدر سابق، ص١٧

خارطة رقم (٢)

تغير مجرى الفرت

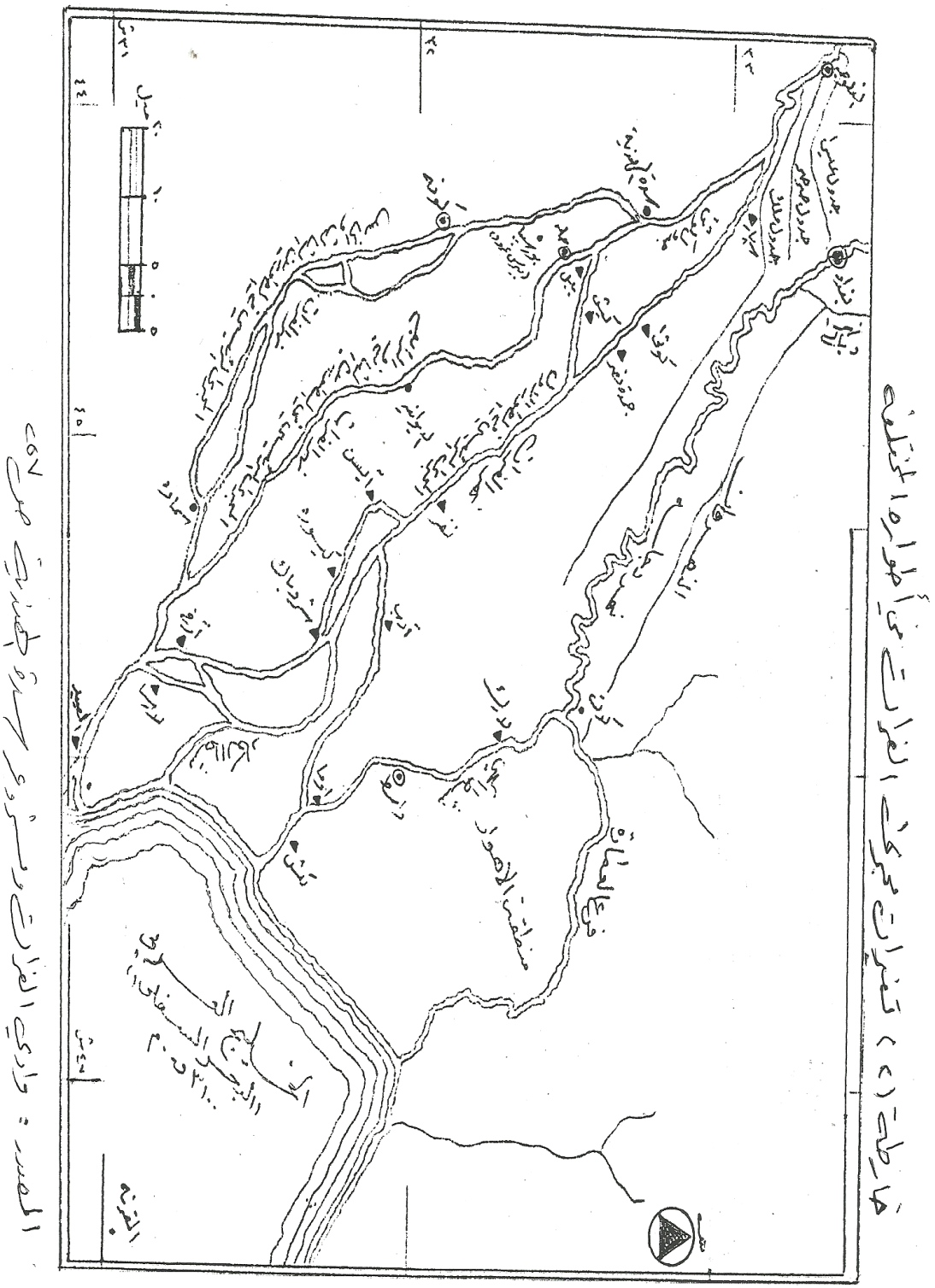

وقام حمو رابي بحفر جدول حمل اسمه يبدأ من مجرى الفرات الجديد شمال بابل وأسفل كيش ينحدر باتجاه الجنوب الشرقي ليصب في المجرى القديم للفرات ،عرف هذا الفرع في العهد الإسلامي بنهر الصراة العظمى أو النيل الذي أقيمت علية مدينة النيل عاصمة الإمارة المزيدية قبل تمصيرهم الحلة والعديد من مراكز الاستيطان الأخرى [١].

وكان هناك فرع يتشعب من ضفة الفرات اليمنى جنوب مدينة المسيب الحالية يسير في اتجاه مجرى شط الهندية الحالي هو نهر بالاكوباس، وكان مجرى جافا وظيفته تصريف المياه الزائدة عن الفرات في موسم الفيضان، ويرجع تاريخه إلى زمن البابليين إذ سموه نهر بالوكات، وسمي بالاكوباس في زمن الاسكندر وفي العهد الإسلامي سمي نهر الكوفة أو نهر العلقمي[٢]، وفي أواخر عهد الساسانيين غير نهر الفرات مجراه ليأخذ من نهر بالاكوباس أعلاه مجرى رئيسيا له باتجاه الغرب واستمر حتى أواخر العهد العباسي، وبقى على هذا المسار حتى جاء الفتح الإسلامي للعراق فشيدوا على ذنائبه مدينة الكوفة التي اكتسب اسمها في عام ١٧هـ، وأصبح مجرى بابل بعد ذلك مجرى ثانويا أطلق علية نهر سورا، وكان القسم العلوي من سورا شمال بابل يعرف بأسم سورا الأعلى، وفي جنوبها يعرف بأسم سورا الأسفل، وأقيمت على الجانب الشرقي للمجرى الجديد مدينتي سورا وقصر ابن هبيرة.

لقد أعاد هذا التغير في مجرى الفرات وتفرعاته . أعاد توزيع مراكز الاستيطان في وادي النهر في المنطقة في هذا الطور والأطوار الأخرى اللاحقة التي تكرر فيها تغيير النهر لمجراه ما بين شط الحلة وشط الهندية كما سنرى ذلك في موضع أخر من البحث.

وأدت التطورات المتصلة بالفتح الإسلامي إلى تغيرات جديدة في اتجاه قنوات الري في منطقة كوثى وجنوبها، حيث اختفى نهر كوثى من الوجود وأصبح النيل (الصراة العظمى) المصدر الرئيسي للمياه في المنطقة، وان الفتوحات الإسلامية أدت إلى ترك ٦٨% من المدن التي كانت موجودة في العهد الساساني فقد كانت المستوطنات والقرى الممتدة على نهر كوثى قد هجرت مواضعها قبل الفتح الإسلامي بفعل الفيضانات المتكررة خلال الفترات المتأخرة للحكم الساساني، فقد جرفت الفيضانات فرع كوثى وحطمت المنطقة بأكملها وان ما تبقى منه أصبح جزءا من نهر النيل. الذي أصبح ونهر سورا مركزين بديلين للاستيطان في العهد الإسلامي في هذه المنطقة[٣]، لقد ورثت العديد من المدن التي ظهرت في العهد الإسلامي في إقليم بابل مواضع المدن السابقة أو قريبا منها، وهناك من يرى بان تعمير السهل الرسوبي في أثناء الفتح الإسلامي وبعده ارتبط بحادث جغرافي مهم مثل تحول مجرى الفرات عند حافة الصحراء في أقصى الغرب إلى داخل السهل الرسوبي [٤]، والذي حصل في القرن الرابع عشر وامتد حتى أواخر القرن التاسع عشر وهي من الفترات المظلمة في تاريخ البلاد والمنطقة إذ تعاقب في السيطرة على مقدرات البلاد كل من المغول، الجلائريون، التتر، التركمان، والصفويون ثم العثمانيون. واستمر الحكم الأجنبي للبلاد خلال هذه المدة حوالي ستة قرون أصبح فيها العراق فريسة للفقر والاضطرابات، ولم تقم تلك القوى بأية أعمال إصلاحية، وتركوا يد الطبيعة قابضة على مقدرات البلاد وأنهارها.

لقد شمل التعمير في هذا الطور الذي تغير فيه مجرى الفرات نحو نهر بابل معظم إقليم بابل الذي أصبح يمثل منفذا طبيعيا للاتصال بين البادية الغربية والسهل الرسوبي، ولعل هذا كان من الأسباب التي حفظت لمنطقة بابل مجدها بعد أن هجرتها السلطة منذ العهد الإغريقي، إذ قامت في نفس المنطقة مدينة سورا والنيل وتوابعها من الأعمال والقرى، ومدينة الحلة التي تعد واحدة من اكبر المدن في داخل السهل الرسوبي [٤].

---

(١) Maguire، Gibbson، The city and The Area of kish، Miami، Florida، 1972 p.317.

(٢) احمد سوسة، وادي الفرات، مصدر سابق، ص١٨٧

(٣) إبراهيم شريف، الموقع العراق الجغرافي، مصدر سابق، ص٦٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٦٥.

(٥) صلاح حميد الجنابي، جغرافية الحضر، مطابع دار الكتب الجامعية، جامعة الموصل، ١٩٨٧، ص٣٦.

ثالثا: توزيع الأنهار في العهد الإسلامي.

للأنهار دورا مهما في توزيع الاستيطان في المنطقة فضلا عن النقل والإرواء، وهنا لابد من الوقوف على جغرافية توزيع هذه الأنهار في المنطقة كما وردت في كتابات الجغرافيين العرب الذين عاصروا الفترة التي سبقت نشوء مدينة الحلة وما بعدها خصوصا بعد إن توضحت صورة توزيع تلك الأنهار في العهد البابلي.

لقد ورث الفرس الساسانيون الذين سيطروا على العراق مدة تزيد على عشرة قرون، ورث هؤلاء نسق بابل في تنظيم شؤون الري وأحسنوا فيه، وحفروا قنوات ثانوية، إلا إن القنوات الرئيسة كانت سابقة لهم حيث كان للنبط دور في الحفر والتشييد، ولعلهم حفروا الأنهار الكبرى في سواد العراق ومنها على سبيل المثال الصراة وسورا في حين أن الفرس حفروا كوثى والصراة الصغرى والنهروان[١] وكان الفرات هو النهر الرئيس في المنطقة الذي يغذي انهارا وفروعا كثيرة، وأثرت هذه الأنهار والقنوات الرئيسة منها والفرعية في تنمية الحياة الاقتصادية والعمرانية في المنطقة وتطويرها، وقد أشار معظم الجغرافيون والبلدانيون إلى هذه الأنهار وأهميتها الاقتصادية، وبشكل خاص في مجال الزراعة والنقل والاستيطان[٢]

ويعد سهراب (ابن سرابيون) من أوائل الجغرافيون الذين تناولوا ذكر المنطقة وأنهارها. إذ خصص في كتابة (عجائب الأقاليم السبعة) فصلا خاصا عن انهار العراق، وقدم وصفا تفصيليا لانهار إقليم بابل بقوله ((إذا جاوز الفرات كوثى بستة فراسخ انقسم قسمين، فيجر الفرات إلى منطقة الكوفة ويماس مدينة الكوفة وعلية هناك جسرا ويمر إلى منطقة البطائح، ويمر القسم الأخر نهرا عظيما أعظم من الفرات واعرض هو النهر الذي يقال له سورا الأعلى (نهر حلة بني مزيد)*.

ويقدم سهراب وصفا تفصيليا لنهر الحلة (سورا) فيقول بأن النهر يمر بقرى وضياع وبلدات، وتتفرع منه انهار كثيرة تسقي طسوج سورا[٣] ويمر بإزاء قصر ابن هبيرة ... وهناك على النهر جسر هو جسر سورا، ويحمل منه نهر ابن رحا أوله فوق القصر، ويمر هذا النهر مع مدينة القصر، ويصب إلى سورا أسفل من القصر، وهناك يحمل منه نهر يقال له سورا الأسفل. وعلى فوهة هذا النهر قنطرة عظيمة يقال لها قنطرة القامغان والماء فيها منصب عظيم. يمر نهر سورا الأسفل بقرى وعمارات ويتفرع منه انهار كثيرة تسقي طسوج بابل، الجامعين والفلوجتين، ويمر هذا فيما بين مدينة بابل، ويمر بالجامعين المحدث (الحلة) والقديم، ويمر إلى احمد اباذ وخطرانية، ويمر إلى قسمين ويتفرع منه هناك انهار تسقي طسوج جنبلاء وما والاها، ويصب في النهر الذي يأخذ من الفرات وهو نهر البداة أسفل من الكوفة في سوادها. ويحمل من نهر سورا الأسفل نهر يقال له النرس أوله مع الجامع العتيق يمر بقرى وضياع ويتفرع منه انهار تسقي سواد الكوفة أو بعضه ويمر بالحارثية وحمام عمر[٤].

ومن قنطرة القامغان إلى فم النرس ستة فراسخ فيصب في البداة التي في سواد الكوفة الذي في شرق الفرات. وإذا جاوز سورا الأعلى قنطرة القامغان سمي هناك الصراة الكبير ويمر بالعقر وبقرى وضياع، ثم يمر إلى صابربيثيا، ويتفرع منه هناك نهر يقال له صراة جاماسب أوله عند النواعير ويمر فيسقي الضياع هناك ويصب في النهر الكبير، والصراة أسفل النيل. فإذا جاوز النهر القنطرة (قنطرة الماس) سمي النيل، ويمر بقرى وعمارات إلى موضع يقال له الهول بينه وبين النعمانية التي على شاطئ دجلة اقل من فرسخ، ومنه يميل إلى دجلة عند قرية سابس الراكبة على دجلة فهذه الأنهار التي تصب وتحمل من نهر الفرات [٥] .

---

(١) هشام جعيط، الكوفة نشأة الإمارة العربية الإسلامية، الكويت، ١٩٨٦، ص١٨

(٢) المسعودي، التنبيه والإشراف، بيروت، ١٩٦٥، ص٤٧، أيضا ياقوت الحموي، معجم البلدان، ا لجزء الرابع، مصدر سابق، ص٢٤١

(٣) المقصود هنا شط الحلة الذي أقام علية المزيد يون مدينة الحلة عام ٤٩٥ هـ – ١١٠١م.

(٤) سهراب (ابن سرابيون) عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة فينا، ١٩٢٩، ص٢٤

(٥) سهراب (ابن سرابيون) عجائب الأقاليم السبعة، مصدر سابق، ص٢٥.

إن الوصف التفصيلي الذي يقدمه سهراب لنهر سورا (شط الحلة الحالي) يغني عن التوضيح، فهو نهر عظيم أعرض وأعظم من الفرات (شط الكوفة) تقع عليه، وروافده العديد من الضياع والقرى ومواضع المدن. الخارطة (٣).

وأشار جغرافيون آخرون إلى الأنهار التي تقع بين دجلة والفرات شمال الإقليم قبل أن ينقسم الفرات إلى قسمين، فهناك نهر الملك وهي مدينة اكبر من صرصرعامرة بالسكان كثيرة النخل والزرع والثمار ثم ينتهي إلى قصر ابن هبيرة، وبعد ذلك يجري النهر حتى يصل سورا.....وهو نهر كثير الماء ليس للفرات شعبة اكبر منه حتى ينتهي إلى سورا[١] .

يتضح مما تقدم أن الأنهار التي تأخذ من الفرات هي نهر سورا وهو أكبرها ونهر الملك ونهر عيسى وكوثى ونهر سوق أسد والصراة ونهر الكوفة. والفرات العتيق ونهر حلة بني مزيد وهو نهر سورا.

أما الأنهار الصغيرة الأخرى فمنها نهر السيب بالقرب من قصر ابن هبيرة ونهر سنداد[٢]. ونهر أبا رحا الذي سماه الطبري، والذي يقع بين الكوفة وقصر ابن هبيرة، ونهر سورا الذي تقع عليه قرية سورا، ونهر ماري الذي يقع فمه عند النيل[٣].

لقد استمرت مراكز العمران على اختلاف أحجامها تؤدي وظائفها المختلفة ومنها مدينة الحلة وأعمالها في النيل وسورا والقصر خلال العهد الإسلامي إذ آن الفرات استمر يأخذ من مجرى الحلة مجرى رئيسيا له، ولكن المتغير الجغرافي المهم الذي اثر على تلك المراكز وأعاد توزيعها في المنطقة مرة أخرى هو تغير مجرى الفرات باتجاه نهر الكوفة في نهاية القرن التاسع عشر والى يومنا الحاضر والذي يمثل الطور الخامس والأخير من تغير مجرى الفرات والذي ترتب علية تقلص في أحجام المستوطنات الواقعة على ضفاف فرع الحلة وهجرة القبائل والعشائر إلى المجرى الجديد في كل من الهندية والمسيب والكوفة والحيرة والمشخاب والشامية، وبعد إنشاء سدة الهندية وتنظيم تصريف المياه في فروع نهر الفرات عام ١٩١٣، أخذت تلك المراكز تستعيد أهميتها وفعاليتها الاقتصادية ومنها مدينة الحلة. فضلا عن ظهور مدن جديدة وقرى كثيرة ارتبط توزيعها بمجاري نهري الهندية والكفل ومجموعة الجداول المتفرعة من شط الحلة ابتداءا من شمال الإقليم المجاور لمحافظتي بغداد والانبار وجنوبا عند حدود محافظتي النجف والقادسية وان اغلب تلك المستوطنات أخذت تسمياتها من الأنهار أو الجداول التي تغذيها.

---

(١) الاصطخري، كتاب الأقاليم، نسخة مصورة في مكتبة كلية الآداب، جامعة الكوفة، ص٤٨.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، مصدر سابق، ص٢٤١

(٣) نفس المصدر، ج١، ص٧٠

خارطة (٣) أنهار المنطقة ومراكز الاستيطان في العهد الاسلامي

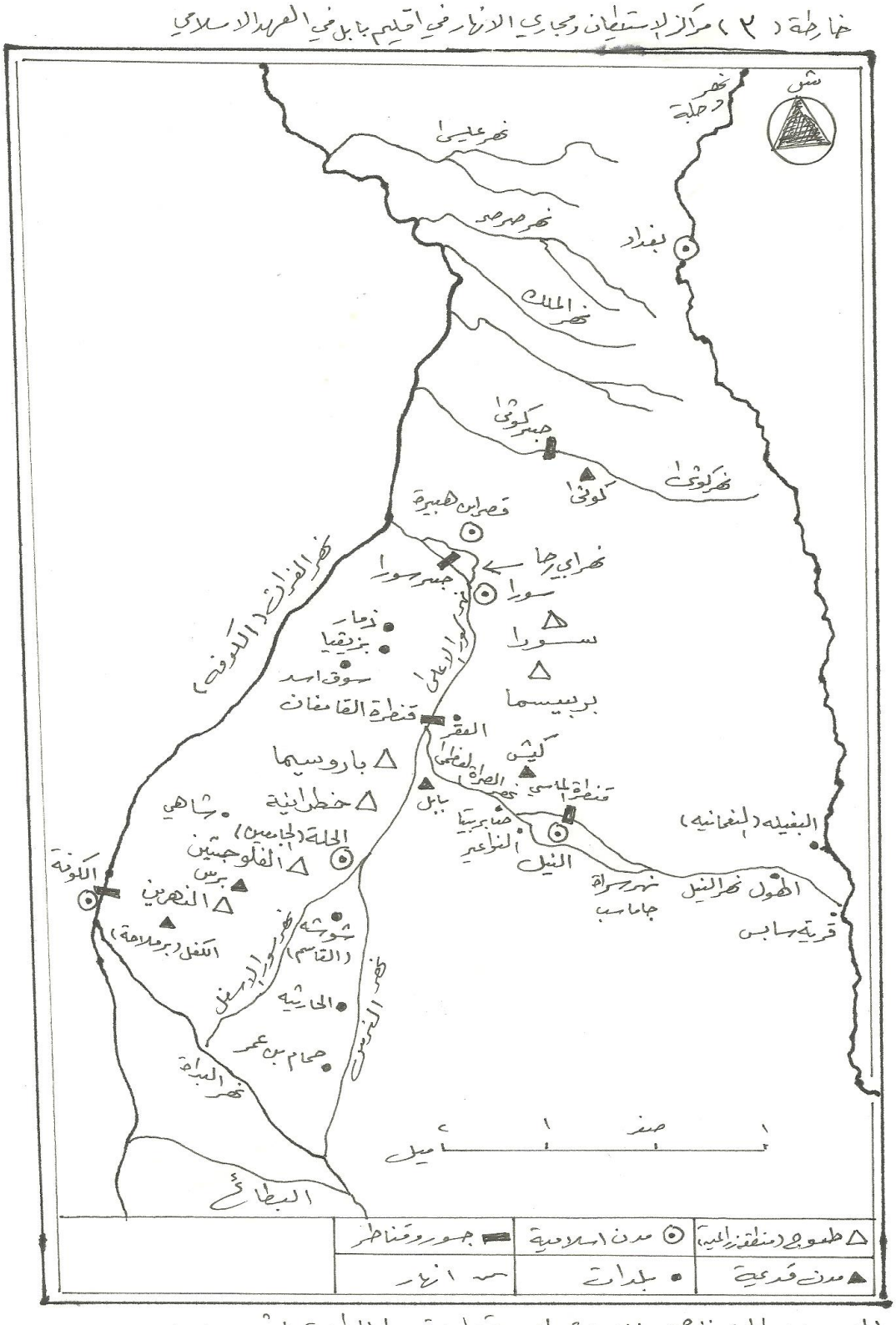

المصدر: عبد الجبار ناجي، الامارة المزيدية، البصرة، دار الطباعة الحديثة، ١٩٧٠، ص ٢٨٧

رابعا: مراكز الاستيطان الإسلامية في إقليم بابل

تعد مدينة الحلة واعتمادا على وصف الجغرافيين والبلدانيين من اكبر الحواضر الإسلامية في المنطقة مطلع القرن السادس الهجري وحتى سقوط الدولة العباسية إذ صارت تشرف على منطقة واسعة تضم عشرات المدن والبلدات، وتمثل مدينة القصرأو قصر ابن هبيرة واحدة من أهم تلك الحواضر التي بناها الوالي الأموي يزيد بن عمر بن هبيرة، وهي على ما تصفها المصادر العربية من اكبر المدن بين بغداد والكوفة إذ هي محطة كبيرة على طريق الحج بالقرب من جسر سورا (قنطرة القامغان) وينزلها العمال والولاة[١]، وكان تمصير الحلة وتعميرها واحدا من الأسباب التي أدت إلى تراجع أهمية هذه المدينة وتحولها إلى بلدة صغيرة أو قرية[٢].

والى الجنوب من القصر توجد مدينة سورا وهي موضع وبلدة بالعراق من ارض بابل[٣] وهي مدينة مقتصدة وآهلة بالسكان تقع إلى الشرق من نهر سورا[٤]، انظر الخارطة (٣) والى الشرق من مدينة بابل وعلى نهر الصراة العظمى (نهر النيل) الذي احتفره الحجاج الثقفي عام ٨٢هـ توجد مدينة النيل التي أحدثها الحجاج أيضا[٥]، وهي من مدن الكوفة اتخذها المزيد يون عاصمة لأمارتهم قبل تمصيرهم الحلة وهناك أيضا مدينة الجامعين (الجامعان) التي مثلت نواة مدينة الحلة وقد وردت في معظم خرائط أطلس الإسلام وأشارت إليها المصادر التاريخية على أنها من الإنشاءات الإسلامية في القرن الرابع الهجري، والى الجنوب من مدينة الحلة وعلى مسافة (٣٠) كم باتجاه مدينة الكوفة توجد مدينة الكفل التي عرفت تاريخيا بأسم (برملاحه) والتي يوجد فيها مرقد نبي اليهود (حزيقال) (ذي الكفل) [٦] وهي لا تبعد كثيرا عن نهر الفرات (الكوفة) في مجراه الرئيسي صوب الكوفة. فقد تموضعت على ضفته اليسرى وامتدت قراها ليس على الفرات وإنما على الجدول الذي سمي بأسمها (جدول الكفل).

وتختلف الروايات التاريخية بشأن أصل مدينة المسيب الإسلامية المنشأ والتي يرى عدد من المؤرخين إلى أن تأسيسها يرجع إلى المسيب ابن نجيبة الفزاري (ت ٦٥هـ) الذي أقام في الموضع مع جماعة من أهل الكوفة للمطالبة بثأر الأمام الحسين (ع)[٧] وهناك من يرى بأنها واحدة من محطات الاستراحة على طريق القوافل التجارية من كربلاء وبغداد شأنها في ذلك شأن الإسكندرية وغيرها [٨].

وترجع نشأة مدينة الإسكندرية كما تقول المصادر التاريخية إلى القائد الروماني الأسكندر بن فيليفوس الذي ملك البلاد الفراتية[٩]، ومن المحتمل جدا أن يكون الأسكندر المقدوني الكبير هو الذي بناها عندما دخل العراق وحارب الفرس في القرن الثالث قبل الميلاد واحتلاله لمملكة بابل[١٠]، وهناك من يعدها من بناء والي بغداد اسكندر باشا وإنها كانت خانا يعرف بخان الإسكندرية وهو الأصل في تسميتها [١١]، أي أنها من مدن القوافل. وتقع المدينة على احد فروع نهر الفرات

---

(١) اليعقوبي، تاريخ البلدان، تحقيق دي غويه، ليدن، ١٩٠٨، ص٣٠٩.

(١) عبد الجبار ناجي، الإمارة المزيدية، دار الطباعة الحديثة، البصرة، ١٩٧٠، ص٢٤٤.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، مصدر سابق، ص٢٧٨.

(٣) البشاري المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق د يغويه، ليدل، ص١١٧

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص٢٩٠.

(٤) عبد الرزاق الحسني، العراق قديما وحديثا، مطبعة العرفان، صيدا، ١٩٥٨، ص٤٦.

(٥) جواد عبد الكاظم محسن، من تراث المسيب، ط ١، مكتب أحمد الدباغ، بغداد، ٢٠٠٢، ص ٥

(٧) علي هادي المهداوي، الحلة في العهد العثماني المتأخر، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٢، ص١٥٢.

(٨) ياقوت الحموي، مع، جم البلدان، ج١، مصدر سابق، ص١٨٢.

(٩) جمال بابان، أصول أسماء المدن العراقية، بغداد، ١٩٨٦، ص٢٠

(١١) علي هادي المهداوي، الحلة في العهد العثماني المتأخر، مصدر سابق، ص١٥٢.

هو جدول الإسكندرية. ومن المؤكد إن يكون لإنشاء هذه المدينة علاقة بهذا المورد المائي المهم.

ومن ملاحظة الخارطة رقم (٣) يمكن ملاحظة ظاهرة جيمورفولوجية جديرة بالانتباه وهي إن معظم مراكز الاستيطان القديمة منها والإسلامية ظهرت على الضفة اليسرى من نهر الفرات في مجراه الأوسط بسبب إن السهل الرسوبي الذي يشكل الفرات حده الغربي يأخذ بالانحدار نحو جهة الشرق حيث يلاحظ إن أراضي غرب دجلة ومنها بغداد تأخذ مياهها من فروع نهر الفرات.

وتعد مدينة جبله وريثة كوثى ربا وبها مشهد إبراهيم الخليل (ع)'' وبها مولده، وفيها طرح إبراهيم في النار، وهي على نهر كوثى (كما أسلفنا) الذي قام بحفره كوثى والد جد إبراهيم لأمه[١]، وفي العهد الإسلامي كانت مسرحا للقتال بين الساسانيين والعرب المسلمين بعد واقعة القادسية، ومنها انطلقت جيوش المسلمين لمحاربة الخوارج عام ٣٦ هـ، وبقيت عامرة طيلة العهد العباسي وحتى العهد العثماني لقربها من بغداد ولأهميتها الاقتصادية كونها منطقة زراعية خصبة[٢]، ولأسباب سياسية واقتصادية تراجعت أهميتها وفقدت مكانتها الاقتصادية خاصة بعد تغير مجرى الفرات وأستمرت كذلك حتى منتصف القرن العشرين عندما نفذ مشروع المسيب الكبير عام ١٩٥٧ وأصبحت بمركز ناحية عام ١٩٦٠ بأسم ناحية بابل[٣].

وفي جنوب الحلة توجد مدينة الهاشمية التي يعتقد بان الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح قد سكنها عندما خرج من الكوفة خوفا من أهلها لاعتقاده بموالاتهم للعلويين قبل إقامته في الانبار، وهي على الضفة الغربية لشط الحلة وسميت الهاشمية تيمنا بهاشم بن عبد مناف بن عبد المطلب[٤].

ومدينة القاسم من مراكز الاستيطان القديمة وكانت قبل ذلك قرية تعرف تاريخيا باسم شوشه[٥]، ويبدو إن العامل الذي ساهم في قيام المدينة هو قربها من مجرى شط الحلة وفروعه المتمثلة بجدولي الجر بوعيه وقو جان، وعزز وجود مرقد الإمام القاسم بن موسى بن جعفر (ع)' وأحاطتها بمنطقة زراعية من أهمية المدينة وتوسعها.

إما مدن الإقليم الأخرى فإنها حديثة النشأة وترجع في معظمها إلى العهد العثماني المتأخر نذكر منها المحا ويل التي كانت في الأصل قرية صغيرة يوجد فيها خانا لإيواء المسافرين إلى بغداد، ثم أصبحت ناحية تابعة لقضاء الحلة في عام ١٨٩٢ م[٦]، وظهرت سدة الهندية على خارطة الاستيطان على نهر الفرات في فترة بناء سد شوندوفيرز كقرية صغيرة يتجمع فيها العمال العاملون في السدة وازدادت أهميتها ونفوسها بعد انجاز سدة الهندية عام ١٩١٣[٧]، أما المدن الأخرى مثل الشوملي والمدحتية (الحمزة الغربي) والطليعة (قرية الزرفية) جرف الصخر، والإمام فأنها ظهرت لتؤدي وظائف تجارية أو زراعية أو دينية، واختارت مواضعها لتكون على مجاري الأنهار مباشرة أو فروعها أو قريبة منها لان المياه تمثل الشريان الحيوي للاستيطان إذ إن احد ضوابط التحضر هو القرب من الموارد المائية وخصوبة التربة. لذا فان ميل المدن للنمو على طول الأنهار كان شيئا طبيعيا لاستعمال الأنهار للزراعة والنقل والإغراض الأخرى[٨].

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، مصدر سابق، ص ٤٨٧

(٢) كوثى ماضيها وحاضرها، كريم مطر الزبيدي ويحيى كاظم المعموري، مطبعة دار الصادق، الحلة، ٢٠١١، ص ١٨.

(٣) نفس المصدر، ص ١٣٨.

(٤) عبد الرضا عوض، الدرة البهية في تاريخ المدحتية، ط ١، مطبعة الضياء، النجف، ٢٠٠٦، ص ٧

(٥) يوسف كركوش الحلي، تاريخ الحلة، ج١، ط١، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٦٥، ص٨

(٦) صلاح السعيد، الحلة في مذكرات الرحالة والمستكشفين، المركز الثقافي للطباعة، بابل، ٢٠٠٨، ص٧١

(٧) ميثم عبد الخضر السويدي، سدة الهندية وآثارها الاقتصادية على الحلة /، مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية، دار الصادق للطباعة، الحلة، ٢٠٠٩، ص ٩٦.

(٨) عبد الرزاق عباس حسين، جغرافية المدن، بغداد، مطبعة اسعد، ١٩٧٦، ص٨

وقد أشارت المصادر التاريخية والجغرافية إلى العديد من القرى والبلدات والبليدات التي اندثرت وأصبحت خرائب وإطلال كانت لبعضها أدوارا سياسية وإدارية وتجارية مهمة نذكر منها الحارثية، وحمام ابن عمر، سوق أسد، القصر، دمار، دارخ الفلوجتان العليا والسفلى، مطير اباذ، بزيقيا، واسط، صابريثيا، قناقية، القنطرة، المزيدية وخطرانيا [١].

ولا بد إن نشير إلى إن الحلة تغير مركزها الإداري من لواء إلى قضاء تابع إلى لواء الديوانية عام ١٨٩٢ وألحقت به النواحي الاتية:. [٢]

١- ناحية المحاويل: ومن قراها الصباغية، خان المحاويل، البو مصطفى، الخاتونية، برنو، كويرش واهم أنهارها: نهر المحاويل، الفندية، حصن جعفر، الشهوانية، العمية، العاصي والمرجانية

٢- ناحية النيل ومن قراها الوردية، الدولاب، فنهره، بيرمانه، الرواشد، واهم أنهارها، نهر النيل، الوردية، بنشه

٣- ناحية الخواص، أهم قراها الزوير، سنجار، عنانه، مرانه، الطهمازية، السده ومن أنهارها، المهناوية، الطهمازية، واليهودية.

٤- ناحية أبو غرق ومن قراها الطينية تقطنها عشائر إل فتله، زغيب، بنو ساله

٥- ناحية نهر الشاة ومن قراها المعميرة، الهميسانية، والدبلة

٦- ناحية علاج، أهم انهار علاج ومن قراها جناجه والبصيرة

٧- ناحية الجربوعية وأراضيها طابو واهم أنهارها الجربوعية، الزرفية، والحسينية

خامسا: بناء سدة الهندية وأثرها على ثبات وأستقرار مراكز الاستيطان في بابل

منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادي تحول نهر الفرات من مجراه الأصلي (شط الحلة) إلى مجراه الجديد (شط الهندية) أو شط الكوفة، وكان السبب في ذلك التحول يرجع إلى ما قام به اصف ألدوله يحيى خان الهندي عام ١٧٩٤ من مساعي وجهود لإيصال الماء إلى مدينة النجف عن طريق حفر قناة تأخذ المياه من الضفة اليمنى لنهر الفرات قرب المسيب لتجري باتجاه شط الكوفة القديم، والتي عرفت فيما بعد بشط الهندية نسبة إلى اصف ألدوله الهندي والذي كان يعرف قديما باسم نهر بالاكوباس، إذ قام اصف ألدوله بتطهير هذا النهر وتعميق مجراه ونفذ المشروع وأصبح ماء الفرات يصل إلى النجف بعد إن صرفت على المشروع أموال طائلة[٣].

ومما لا شك فيه إن مشروع حفر نهر الهندية يعد السبب المباشر والرئيسي لتغير مجرى الفرات صوب الهندية[٤]، والذي دخل فيه النهر طوره الخامس والأخير واستقرت فيه مجاري الأنهار في بابل ومدن العراق الجنوبية الواقعة على مجرى الفرات الجديد، وهناك أسباب أخرى أسهمت في تغير مجرى النهر في هذا الطور وهي:

أ- إنشاء سد محكم على نهر الصقلاوية القديم عام ١٨٧٠ أيام ولاية مدحت باشا بهدف تجفيف مياه الأهور الواقعة غرب بغداد والتي يغذيها نهر الصقلاوية بالمياه والتي كانت مصدرا لانتشار الأوبئة والأمراض[٥]، وكذلك تامين حماية بغداد من فيضانات هذا النهر، وأجمع معظم المؤرخين والباحثين إلى أن بناء سد جدول الصقلاوية كان السبب المباشر في تحول مجرى الفرات لان شط الحلة أصبح غير قادر على استيعاب كل المياه في موسم الفيضان. إذ أن قسما كبيرا من تلك المياه كان ينساب في جدول الصقلاوية لمدة خمس قرون.

---

(١) رنا سليم العزاوي، الحلة في العصر المغولي، مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية، دار الصادق للطباعة، الحلة، ٢٠٠٩، ص٤٧-٥٠

(٢) يوسف كركوش الحلي، تاريخ الحلة، مصدر سابق، ص١٥٤

(٣) احمد سوسه، حياتي في نصف قرن، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦، ص١١٣

(٤) إسحاق النقاش، شيعة العراق، ت عبدا لله ألنعيمي، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٣٨٦

(٥) حمود ألساعدي، بحوث عن العراق وعشائره، دار الأندلس، النجف الاشرف، ١٩٩٠، ص ٧

ب- جريان المياه في مواسم الفيضانات باتجاه مجرى الهندية خاصة وان شط الحلة أصبح غير قادر على استيعاب الكميات الكبيرة من مياه نهر الفرات في هذه المواسم، ونتيجة لعمليات ألحت والتعرية تعرض المجرى القديم (شط الهندية) إلى تعميق المجرى.

ج- انخفاض مستوى الأرض في المناطق الواقعة شمال وجنوب الكوفة المؤدية إلى النجف، وهي منطقة فاصلة جيولوجيا بين السهل الرسوبي والهضبة الغربية، ولذلك انتشرت في هذه المنطقة البحيرات والأهوار الواسعة المساحة مثل بحر النجف وأهوار الدخن، العونيه، أبو طرفة، الكفل، وهور الشنافية وبحيرة يونس(١).

د. – ترسب كميات كبيرة من الرسوبيات التي يحملها شط الحلة من الطمى والغرين في قيعان المجرى خصوصا في منطقة الذنائب أو المجرى الأسفل فتضطر المياه للبحث عن مناطق أخرى منخفضة تجري فيها في ظل انعدام المشاريع التي تنظم عملية الري، وان استخدام طريقة السدود الترابية (الحمول) لرفع منسوب المياه بهدف إيصالها إلى الأراضي الزراعية المرتفعة ساعد كثيرا في تراكم تلك الرسوبيات.

هـ- إهمال مشاريع الري وعدم صيانة وكري الجداول والأنهار وتركها عرضة للتغيرات الجيمورفولوجية وتكرار حدوث حالات الفيضانات، فضلا عن الحملات العسكرية التي كانت تقوم بها السلطات العثمانية ضد العشائر القاطنة على نهر الفرات، فالعشائر تعمد إلى كسر السداد وتحويل المياه إلى الاهوار لتتحصن بها، ومن الجهة الأخرى كانت الحكومة تلجأ إلى سد مجاري الأنهار بهدف تجفيف الأراضي ليسهل عليها التقدم لتحطيم تحصينات العشائر وحرمانها من مياه الشرب والري إذ عمد الولاة العثمانيون إلى سد مجرى الفرات في الديوانية وشط الدغارة عن عشاء الخزاعل والاكرع(٢)، وقد كان من نتائج تغير مجرى الفرات جهة الهندية، تقلص مساحة ونفوذ مراكز الاستيطان في لواء الحلة وتراجع إنتاجها الزراعي إذ أصبح السكان غير قادرين في الحصول على المياه لتامين متطلبها البشرية والزراعية، وقتها قررت الحكومة العثمانية نقل مقر المتصرفية من الحلة إلى الديوانية وأصبحت الحلة بموجب ذلك قضاءا تابعا إلى الديوانية بعد أن كانت تضم كل مدن الفرات

الأوسط حتى السماوة جنوبا ما عدا كربلاء(٣)، فأصاب المدينة الخراب ونزلت نفوسها إلى اقل من النصف ونزح أكثر من أهاليها وقراها التي حول نهرها إلى أماكن أخرى على مجرى الفرات الجديد والى مناطق دجلة خاصة الكوت والنعمانية(٤)، ومن جانب أخر فان تغير مجرى الفرات جهة الغرب أدى إلى ظهور العديد من المدن البديلة لمدينة الحلة وقراها على شط الهندية الجديد، إذ تشكلت بعد ذلك العديد من المدن كالهندية (طويريج) وشريعة الكوفة (الجسر) وأم البعرور (الشامية) والشنافية وغيرها، وهناك دخل النهر الجديد في أراضي منخفضة مكونا الاهوار والبحيرات منها هور (بحر) النجف الذي امتد جنوب البلدة من الشرق إلى الغرب وهور الدخن والعونية وأبو طرفة والكفل وبحيرة يونس وبحيرة الشنافية وحدثت على حافتي هذا النهر الأشجار والبساتين وكثير من الأراضي الزراعية التي اشتهرت بزراعة الشلب دون مناطق العراق الأخرى، ونزلت على حافتي النهر الجديد عشائر كثيرة مثل إل فتله وبني حسن والعوابد(٥).

وقد حاول العثمانيون تلافي الأمر بتوجيه قسم من مياه الفرات إلى شط الحلة ومن هذه المحاولات ما قام به الوالي علي رضا اللاز عام ١٨٣٦ في إنشاء سد ترابي في مقدمة نهر الهندية للحد من توسعه، وباءت تلك المحاولة بالفشل أعقبتها

---

(١) حمود ألساعدي، بحوث عن العراق وعشائره، مصدر سابق، ص٥٩

(٢) نفس المصدر، ص ٣٥.

(٣) علي هادي المهداوي، الحلة في العهد العثماني المتأخر، مصدر سابق،، ص٣٠

(٤) يوسف كركوش الحلي، تاريخ الحلة، مصدر سابق، ١٥٢.

(٥) حمود ألساعدي، بحوث عن العراق وعشائره، مصدر سابق، ص٥٩

محاولات أخرى بنفس الأسلوب والطريقة قام بها الوالي محمد نجيب باشا عام ١٨٤٢ وعام ١٨٤٣ وتكررت المحاولات من قبل الولاة عبد الكريم نادر باشا ورشيد باشا الكوزلكي وأكرم عمر باشا ونامق باشا ١٨٦٦[١].

وبعد أن تعرض شط الحلة إلى الجفاف التام عام ١٨٨٥، وتعرض أراضي وبساتين السلطان عبد الحميد الثاني إلى الهلاك والتي تعرف بالأراضي السنية وتراجع واردات الدولة من لواء الحلة ومناطقها وخراب الحلة واضطراب أحوال الأهالي، وتفرق أهل الريف إلى مواضع أخرى أمر السلطان (عبد الحميد) بإنشاء سد حجري في مقدم نهر الهندية وأنيطت مهمة الإنشاء بالمهندس الفرنسي شوندوفيرز الذي أكمل انجازه في تشرين الأول من عام ١٨٩٠ معتمدا على الطابوق المستخرج من بابل، والأحجار والقير المنقول من هيت في أعالي الفرات. ولقد تمكن السد بعد انجازه من رفع مياه الفرات وزيادة تصريف شط الحلة إلى ١٥٠م٣/ ث[٢]، إضافة إلى إحياء الأراضي الزراعية على جانبي النهر وانتعاش القرى الممتدة على ضفتيه واستقرار العشائر في المنطقة.

وفي السنوات التي أعقبت إنشاء سد شوندوفيرز، أهمل السد ولم يلق العناية الكافية ولم يؤخذ بالتوصيات التي أكدت على ضرورة إزالة السدود الترابية في ذنائب شط الحلة في الرميثة وإصلاح مجرى النهر في مقدمة السد لتأمين رفع منسوب الماء وقلع السدود المقامة على فرع الحلة بين الصدر والسماوة وتنظيم وحفر الجداول المتفرعة من شط الحلة وأيضا إعادة تنظيم مجرى فرع الدغارة بتحويل صدره إلى موقع أكثر ملائمة من موقعة الأصلي وجعله والجداول التي تأخذ منه أكثر استقامة ودون تعرج[٣].

وأكدت تلك التوصيات على ضرورة إن لا يهمل السد من الإصلاح في كل عام وإلا تعود الأحوال إلى ما كانت عليه، وبعد خمسة عشر عاما من إقامة السد ونتيجة للفيضانات وسرعة تدفق المياه من الفتحة الوسطية للسد وحصول التآكل في مؤخرته تعرض السد إلى الانهيار وقدر تصريف الماء في فرع الهندية ٣٦٠م^3/ ث، أي كل ماء الفرات[٤]، وقد بلغت الحالة أشدها صيف عام ١٩٠٤ إذ انقطع الماء عن شط الحلة، الأمر الذي اضطر السلطات على حفر جدول في وسط مجرى شط الحلة

مراكز الاستيطان في المنطقة وبالتالي حصول إعادة توزيع شبه مستمرة لهذه المراكز سواء كانت مدنا أو قرى... وبعد انجاز سدة الهندية الجديدة من قبل المهندس البريطاني وليم ويلكوكس في عام ١٩١٣ إيذانا بدخول المنطقة مرحلة جديدة من الاستقرار أفضت إلى توسيع في خارطة الاستيطان لتشمل كل إقليم بابل من الشمال إلى الجنوب بعد استقرار جريان المياه في فروع نهر الفرات شمال وجنوب السدة وكذلك الجداول الفرعية التي تأخذ من شط الحلة حتى دخوله محافظة القادسية التي ينقسم فيها النهر إلى فرعين أولها الدغارة الفرعي وشط الديوانية الرئيسي.

وفي العام ١٩٨٩ افتتحت السدة الحديثة للهندية التي نفذتها الشركة الصينية العامة للهندية الإنشائية على مسافة حوالي ١,٧ كم شمال السدة السابقة، وان قرار بناء السدة الحديثة جاء بعد دراسة مستفيضة لواقع الري في بابل بعد أن أصبحت السدة السابقة غير قادرة على تلبية متطلبات الأراضي الزراعية التي تعتمد في زراعتها من الجداول المتفرعة من شمال السدة، إذ أصبحت السدة عاجزة عن مواجهه الفيضانات الاستثنائية العالية المنسوب كما حصل في عامي ١٩٦٧و١٩٦٨ لإيصال الماء إلى المدينة. ولم تسفر هذه الجهود عن نتيجة مرضية إذ جف شط الحلة تماما عام ١٩٠٥.

---

(١) احمد سوسة، وادي الفرات، مصدر سابق، ص٢٦١.

(٢) نجيب خروفه وآخرون، الري والبزل في العراق والوطن العربي، مطابع المنشأة العامة للمساحة، بغداد ١٩٨٤ ص١٣٩.

(٣) حمود ألساعدي، بحوث عن العراق، مصدر سابق، ص٨٨.

(٤) أحمد سوسة، وادي الفرات، مصدر سابق، ص٢٩٠

نستنتج مما تقدم إن هناك عدم استقرار في مجرى نهر الفرات في هذا الطور الذي شهد تذبذبا في وصول المياه إلى حيث قدرت كمية المياه التي تمر خلال السدة عام ١٩٦٨ ما بين ٦٠٠٠-٧٠٠٠م^3 / ث وهي كمية كبيرة جدا لا تتمكن السدة من استيعابها، ولم يستطع المهندسون من توجيه أية كميات من المياه نحو الجداول المتفرعة شمال السدة، إذ إن ذلك الأجزاء يستدعي إغلاق السد جزئيا والذي قد ينجم عنه اقتلاع السدة بأكملها(١).

٥- مجاري الأنهار والتوزيع الجغرافي لمراكز الاستيطان في الإقليم

تتجه الجداول المتفرعة من نهر الفرات شمال السدة ضمن إقليم بابل باستثناء جدول الرويعية ضمن ناحية جرف الصخر نحو الشرق الخارطة (٤)، وهذا الأمر ارتبط بطبيعة التكوين الجيولوجي للمنطقة إذا أنها تحادد غربا الخط ألانكساري الذي يفصل بينها وبين الهضبة الغربية. وان الأنهار والجداول التي تخرج من نهر الفرات من الجهة اليسرى من الشمال إلى الجنوب هي كآلاتي:

- جدول الإسكندرية يمر بناحية الإسكندرية والقرية العصرية على طريق حلة – بغداد
- جدول المسيب الكبير ويعد من أهم الجداول التي تستفيد من وجود السد بعد شط الحلة إذ انه يروي مساحة زراعية كبيرة وتنتشر على ضفتيه العديد من مراكز الاستيطان الريفية والحضرية لعل أهمها ناحية جبله (كوثى ربا)
- جدول الناصرية، يأخذ مياهه من الفرات جنوب مدينة المسيب.
- جدول الكفل وكان يسمى إثناء الاحتلال البريطاني جدول الجورجية نسبة إلى ملك بريطانيا جورج الخامس(٢) وهو يسير بجوار نهر الهندية من جهة اليسار لمسافة (٦٥)كم ضمن أراضي قليلة الانحدار، وتتوزع عليه وعلى الجداول الفرعية منه مجموعة من القرى والعشائر أهمها عوفي والرغيلة واليسار وطفيل حتى يصل جنوب الكفل.
- شط الحلة يعد من أهم منظومات الري في العراق بصورة عامة ومحافظة بابل بصورة خاصة والى وقت قريب جدا كان النهر الرئيس والوحيد الذي تم ضبط كافة مآخذه، واستغلت مياهه لإغراض الري الفعلي ويتفرع منه (٣٤) جدولا من ضفتيه اليمنى واليسرى والمأخذ الأخرى الصغيرة(٣).

يتباين التوزيع الجغرافي لشبكة الجداول المتفرعة في شط الحلة في أطوالها وكمياه تصريفها والمساحات التي ترويها، ويعود ذلك إلى إن الكثير من تلك الجداول بقيت ثابتة في مكانها لأعتبارات تاريخية، فالبعض منها حفرت منذ العصر العباسي الأول ثم اندثرت من جراء تجمع الترسبات فيها وكان الفلاحون يعملون بموجب النظام الإقطاعي بطريقة الحشر (الفزعة) لإغراض تنظيف وكري الجداول والقنوات من الرواسب والتي تحدث مرة أو مرتين في السنة وبأساليب يدوية بسيطة، وتجمع تلك الرواسب على طول القنوات مكونة تلالا تعرف محليا (العراكيب) خصوصا في الأجزاء القريبة من صدور الجداول، وعندما يزداد ارتفاع تلك التلال يجد الإقطاعيون من السهل حفر جدول جديد بدلا من الجدول القديم لصعوبة إزالة التلال مما يؤدي إلى تغير في الموقع وفي التوزيع الجغرافي لتلك الجداول. وعلى أساس ذلك نجد إن معظم الجداول الواقعة جنوب المدينة ذات أطوال قصيرة نسبيا، فضلا عن تباعد مأخذ تلك الجداول أو صدورها في المجموعة الأولى وتقاربها في المجموعة الثانية، وقد يشترك أكثر من جدول في مأخذ واحد ثم يفترقان بعد ذلك، وكان لطبيعة الملكية الزراعية أيضا اثر واضح في ذلك التباين حيث تتصف الملكيات الزراعية الشمالية باتساعها النسبي وتباعدها في حين تقل وتتقارب في الأجزاء الجنوبية، وهذا ساعد على التخصص الزراعي ونمط الزراعة، إذ تمارس الزراعة الواسعة للمحاصيل

---

(١) عبد الإله رزوقي كربل، التباين المكاني لكفاية انظمة الصرف (البزل)واستصلاح الأراضي في محافظة بابل، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠١، ص ١٢٤.

(٢) احمد سوسه، تطور الري في العراق، مطبعة المعارف، بغداد ن ١٩٤٦، ص ١٠٦.

(٣) عبد الإله رزوقي كربل، التباين المكاني لكفاية أنظمة الصرف، مصدر سابق، ص ٤٤

الحقلية ذات الحاجة المائية القليلة كالذرة والحنطة والشعير والباقلاء في الأجزاء الشمالية وتنتشر ألبستنة في الأجزاء الجنوبية.

لقد انعكس هذا الأمر على واقع الاستيطان الريفي والحضري أيضا. إذ إن مراكز الاستيطان في الأجزاء الشمالية من الإقليم تكون قليلة ومتباعدة ومعظمها من النوع المبعثر أو المنتشر، وتكون متقاربة ومن النوع المتجمع في الأجزاء الجنوبية، ولذا نلاحظ إن خارطة توزيع مراكز الاستيطان أكثر كثافة في الجنوب عنها في الشمال مع إنهما يشتركان في إنهما لا يبعدان كثيرا عن ضفاف الأنهار والجداول إن لم تكن عليها مباشرة.

ومن الخارطة (٥) يمكن ملاحظة إن ٧٥% من مراكز الاستيطان تتواجد مواضعها على ضفاف شط الحلة، ويتوزع الباقي على بقية الجداول، وبعد إن كانت عدد تلك المراكز الاستيطانية تعد بالعشرات وبإحجام صغيرة تضاعفت إعدادها وإحجامها وتغير مركز بعضها من قرى إلى ناحية أو قائم مقاميه. وبعد إن كان نمط الاستيطان الريفي المبعثر هو السائد في معظم المناطق الريفية تحول وبسبب الحاجة إلى الأمن والخدمات إلى التجمع في قرى منظمة تمتد بشكل خطي على طول الأنهار والجداول، ولم تؤثر طرق النقل إلا بشكل نسبي في توزيع مراكز الاستيطان بل إن تلك الطرق . على اختلافها وسلكت نفس الأسلوب في التوزيع أي إنها لا تبعد كثيرا عن مجاري الأنهار.

مصادر البحث:.

١. القرآن الكريم

٢. أبراهيم شريف، الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الاسلامي، بغداد، بلا تاريخ.،

٣. احمد سوسه، وادي الفرات ومشروع سدة الهندية، ج ٢، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٤٥..

٤. احمد سوسه، تطور الري في العراق، بغداد، ١٩٤٦.

٥. أحمد سوسه، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، بغداد، ١٩٧٩.

٦. أحمد سوسه، حياتي في نصف قرن، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦.

٧. أسحق النقاش، شيعة العراق، ترجمة عبد الله النعيمي، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٣.

٨. الاصطخري، كتاب الاقاليم، نسخة مصورة في كلية الاداب، جامعة الكوفة.

٩. البشاري المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ط٢، تحقيق دي غويه، ليدل، ١٩٠٦

١٠. البلاذري، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.

١١. حمود الساعدي، بحوث عن العراق وعشائره، دار الاندلس، النجف، ١٩٩٠.

١٢. جمال بابان، اصول أسماء المدن العراقية، بغداد، ١٩٨٦.

١٣. جواد عبد الكاظم محسن، من تراث المسيب الشعبي، مكتب أحمد الدباغ، بغداد، ٢٠٠٢.

١٤. جوردن أيست، الجغرافية توجه التاريخ، تعريب جمال الدين الدينا صوري، مطابع دار الهلال، القاهرة، بلا تاريخ.

١٥. رنا سليم العزاوي، الحلة في العهد المغولي (الايلخاني) مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية، جامعة بابل، دار الصادق، الحلة، ٢٠٠٩.

١٦. سامي سعيد الاحمد، حضارة العراق، ج٢، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥.

سهراب (أبن سرابيون) عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة، فينا، ١٩٢٩.

١٧. صالح فليح حسن الهيتي، طريق القير من هيت الى بابل، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، ع٢٣، بغداد، ١٩٨٩.

١٨. صلاح حميد الجنابي، جغرافية الحضر، مطابع جامعة الموصل، الموصل، ١٩٧٨.

١٩. صلاح السعيد، الحلة في مذكرات الرحالة والمستكشفين، المركز الثقافي للطباعة، الحلة، ٢٠٠٨،

٢٠. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١، بغداد، ١٩٧٣.

٢١عبد الجبار ناجي، الامارة المزيدية، دار الطباعة الحديثة، البصرة، ١٩٧٠.

٢٢. عبد الاله رزوقي كربل، التباين المكاني لأنظمة الصرف وأستصلاح الاراضيفي محافظة بابل، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠١.
٢٣. عبد الرزاق الحسني، العراق قديما وحديثا، مطبعة العرفان، صيدا، ١٩٥٨.
٢٤. عبد الرزاق عباس حسين، جغرافية المدن، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٦.
٢٥. عبد المؤمن أبن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع في أسماء الامكنة والبقاع، دار أحياء الكتب العبية، بيروت، ١٩٥٤.
٢٦. علي هادي المهداوي، الحلة في العهد العثماني المتأخر، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٢.
٢٧. فاضل عبد الواحد علي، السومريون والاكديون، كتاب العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣.
٢٨. قحطان رشيد، الكشاف الاثري في العراق، بغداد، ١٩٨٦.
٢٩. كريم مطر الزبيدي ويحيى كاظم المعموري، كوثى ماضيها وحاضرها، دار الصادق، الحلة، ٢٠١١.
٣٠. المسعودي، التنبيه والاشراف، بيروت، ١٩٦٥.
٣١. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، بيروت، ١٩٦٥.
٣٢. مؤيد سعيد، العراق في عهد الاحتلالين الاخميني . السلوقي، كتاب العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٣.
٣٣. ميثم عبد الخضر السويدي، سدة الهندية وآثارها الاقتصادية على الحلة، مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية، جامعة بابل، دار الصادق للطباعة، الحلة، ٢٠٠٩.
٣٤. نجيب خروفه وآخرون، الري والبزل في العراق والوطن العربي، مطابع المنشأة العامة للمساحة، بغداد، ١٩٨٤.
٣٥. هشام جعيط، الكوفة، نشأة الامارة العربية الاسلامية، الكويت، ١٩٨٦.
٣٦. وليم ويلكوكس، من جنة عدن الى عبور نهر الفرات، ترجمة أحمد سوسه، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٤٣.
٣٧. يوسف كركزش الحلي، تاريخ الحلة، ج١، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٦٥.
٣٨. ياقوت الحموي، معجدم البلدان، الاجزاء ١، ٣، ٤، ٥، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ
39 Miguire Gibsson,The City and The Area of Kish,Miami,Florida,1972.